3

العالم الخارق للطبيعة

لم يكن الاعتقاد بالأرواح والكائنات الخيالية والكهانة مقتصراً يوماً على العالم الإسلامي، فلطالما ابتكر الناس منظوماتٍ، أو ابتدعوا كائناتٍ، لتفسير ما يستعصي على الفهم، بغرض التعامل مع طيف واسع من الخبرات التي لم يكن بالإمكان إدراكها دون ذلك. وعلى الرغم من أن بعضنا قد ينظر إلى علم التنجيم مثلاً في أيامنا هذه أنه علم زائف، فقد كان يؤخذ على محمل الجد في العالم الإسلامي فيما قبل العصر الحديث، إذ كان يعد علماً مُلحَقاً بعلم الفلك. وكان التنين ووحيد القرن والقنطورس والخطّاف وأبو الهول تزين جميعاً العمارة والأشياء الإسلامية، ومع أن معناها الدقيق قد لا يكون واضحاً دوماً، فقد ظهر كثير منها في سياقات بَدت وكأنها درء للشر. أما الجن أو العفاريت فكان لها دور تخريبيّ أكثر، وكانت تعد مصدراً للكثير من المتاعب، لكن بمقدورها أيضاً أن تكون مفيدة في بعض الأحيان. وقد تتفاوت أشكالها، لكن الجن صورت في بعض الحالات كشياطين.

وكما هو الأمر بالنسبة إلى الرياضيات، فقد عَبَرت معارف علم التنجيم إلى العالم الإسلامي قادمة من قدماء الإغريق والفرس والهنود، وكانت هذه المعارف تتألف من فرعين هما: علم التنجيم الطبيعي، الذي كان يُعنى بمراقبة تأثير النجوم على الطبيعة، وعلم التنجيم القضائي الذي يتعلق بتأثيرها على مصير البشرية. تتطلب دراسة علم التنجيم بعض المعرفة بعلم الفلك، على الرغم من أن علم الفلك في الأصل قد نشأ على الأرجح من علم التنجيم. وقد ركزّ علم التنجيم الطبيعي على شروق بعض النجوم المعينة وغروبها، صانعاً تنبؤات جوية على أساس مواضع النجوم، وملاحظة الظروف الجوية

في أيام مهمة بعينها. وظهرت أدبيات تتألف من جداول تحدد حركات النجوم ومعلوماتٍ عن الزراعة على هيئة تقويم. أما علم التنجيم القضائي فكانت له وظيفتان رئيستان هما: التكهّن بتنبؤاتٍ تتعلق بالشخص بناءً على مواضع النجوم في الوقت الذي وُلِد فيه هذا الشخص، والتنبؤ بأوقاته الميمونة والمشؤومة.

كانت هناك في العصور الإسلامية الأولى والقرون الوسطى سبعة كواكب معروفة هي: المشتري والزهرة والقمر وزحل والمريخ وعطارد والشمس. واعتبرت الكواكب الثلاثة الأولى حميدة، أما الكوكبان الرابع والخامس فكان يُنظَر إليهما أنهما سلبيان، في حين يختلف الكوكبان الأخيران حسب علاقتهما بالكواكب الأخرى. وبالإضافة إلى ذلك، اعتقد المنجمون بوجود كوكبين زائفين يقابلان رأس تنينٍ وذيله، ويرمزان الى خسوف القمر. وضمن خمس درجات فوق مدار الشمس وتحته تقع البروج التي تُشكل الرموز الاثني عشر في دائرة البروج.

لقد اعتمدت التنبؤات التنجيمية على العلاقات بين رموز البروج والكواكب في نقاط محددة من الزمن. وقد شُرِح أول نظام تنبؤي ذي عراقة مشهودة باللغة العربية في القرن التاسع عشر، واحتفظ علم التنجيم ورموزه بأهميتها في العالم الإسلامي إلى العصر الحديث. إن المظاهر المتكررة على المعادن والخزف لرموزٍ تمثل دائرة البروج والكواكب، وكذلك خرائط البروج والطوالع المصنوعة لأمراء القرنين الثاني عشر والثالث عشر، ما هي إلا دلائل تؤكد الاعتماد المستمر على علم التنجيم وتوقعاته.

أما كائنات السفينكس (أبو الهول) والخطاف، فهي موجودة في كل مكان في الفن الفارسي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، لكنها لا تميل إلى الظهور في الأدبيات فيما عدا

مِقبَض خنجر، الهند المغولية، 1625 ميلادي. ذهب مُرصّع بالياقوت والزمرد، نصل فولاذي، ومحمل على غمد من الخشب.
ينتهي القضيب المُستعرِض للمقبض برأسي تنينين مع خطوم ملتفة. وذلك مستمد من ماكارا الهندي Indian makara، وهو مخلوق أسطوري يشبه التنين، وأقرب إلى التمساح منه إلى مفهوم التنين الصيني أو الأوروبي.

تلك التي تتحدّث عن «عجائب الخَلق»، في حين يبرز التنين، من جهة أخرى، بقوة في الأدبيات وعلم التنجيم والفن. وحتى أوائل القرن الرابع عشر، كان التنين الإسلامي يُصور بشكل يبدو فيه كأفعى سمينة ذات آذان وخطوم متجعِّدة، أكثر مما تبدو كالوحوش الحرشفية المتموِّجة ذات الأكتاف المتوهجة، التي سكنت عالم ما بعد المغول. وبالمثل فقد تحوَّل وحش السينمورف senmurv الإيراني القديم، بعد الغزو المغولي في القرن الثالث عشر، ، وهو وحش له رأس أسد وذيل طائر، إلى سيمورغ simurgh، وهو طائر شبيه بالعنقاء. وعلى الرغم من أن كلاً من التنين والسيمورغ تمتعا فعلاً بحياة طويلة في الأدب الفارسي، فإن أشكالهما، بعد القرن الرابع عشر، كانت مُستمدة من النماذج الصينية المستوردة إلى الشرق الأوسط على يد المغول.

ومع أن التنين كان شريراً عادة في سياق السرد القصصي، فإنه يظهر أيضاً على بوابات المدن والعروش والفخار المزجّج، إذ كان من شأنه حماية الناس في الداخل. وفي الأدب كان السيمورغ simurghs خيِّراً وسحرياً بشكل

عام، في حين أنه، وبمعزل عن الإطار القصصي الروائي، كان غالباً ما يظهر في معركة مع التنين على السجاجيد وأغلفة الكتب أو وحده على الخزف والزجاج. ومرة أخرى، وعلى الرغم من عدم وجود أهمية رمزية دقيقة، كان من الواضح أن السيمورغ simurghs يمثل بركةً وقوة.

توصف الجن في الإسلام أنها مخلوقات من نار، وعلى الرغم من أنها ذات طبيعة غير مادية أصلاً، فإن بإمكانها أن تتخذ أشكالاً عديدة. وتظهر الجن في القرآن الكريم كمساعدة للنبي سليمان Solomon ، وقد صُوِّرت في الرسوم التوضيحية للمخطوطات وفي الأوعية المطلية بالورنيش في القرن التاسع عشر كشياطين تحيط بعرش سليمان. وعلى عكس الجن، التي هي من ابتداع العرب، كانت الشياطين تمثِّل شراً في الأساطير الفارسية. فأشكالها التي تشبه الغول كانت شيئاً مُفضَّلاً دوماً في المخطوطات المصورة في الشاهنامه(49) shahnameh؛ أي الملحمة الوطنية الفارسية.

اليمين: تفصيل من «رستم نائم في حين يصارع راخش Rakhsh الأسد»، من شاهنامه Shahnameh مبعثرة غير مكتملة، إيران، تبريز، منسوبة إلى السلطان محمد Sultan Muhammad، 1515 ميلادي.

في أوائل القرن السادس عشر، كانت عادة تصوير الوجوه المخفية في الصخور تُستَخدم منذ أكثر من مائة عام. تنطوي الصخور الخضراء والوردية والزرقاء على سحنة غول مع أنف مفلطح، إلى جانب أسد. ومع أنها قد تمثل الأرواح التي تسكن المرج المحيط بعرين الأسد حيث ينام رستم، فيمكن تفسيرها أيضاً على أنها الجن، وهي غالباً ما تصوَّر في الرسومات الفارسية بملامح شياطين.

غطاء حافظة أقلام، غرب ايران، مُوقَّعة من جانب «محمود بن سنقر»، ومؤرخة بتاريخ 680 هجري/1281 ميلادي. نحاس أصفر مسبوك مُرصَّع بالفضة والذهب.

رموز دائرة البروج الاثني عشر مرتبة في ثلاث مُدوَّرات على الغطاء الخارجي للحافظة. وكل رمز منها مُرفق برمز أو بتجسيد كوكبه المهيمن، وهكذا تشرق الشمس وراء برج الأسد إلى يمين المدوَّرة المركزية، والزهرة تعزف القيثارة تحت كفتي ميزان برج الميزان إلى اليسار في المدوَّرة نفسها. وبدمج هذا التصوّر التنجيمي مع تجسيد الكواكب في المنطقة الداخلية من حافظة الأقلام نفسها، كان من شأن هذا التصوّر أن يمثل رمزاً فعالاً للنظام الكوني.

اليسار : تفاصيل من الزخرفة الهامشية لألبوم متفرّق من الشعر، إيران التيمورية، شيراز(50) Shiraz، منتصف القرن الخامس عشر. حبر وذهب على الورق.

هذه الشخصيات بأجنحتها وأرجلها المنتهية في الكروم المُعرّشة وقبعاتها المُورقة، يمكن تعريفها على أنها باريات Peris (مخلوقات خرافية) أو جنيّات. لقد كان للباريات Peris خصائص سحرية، وبإمكانها أيضاً أن تتزوج البشر، إلا أنها هنا مجرد تزيينات لطيفة.

أسفل: تفصيل لبرج الثور من وعاء «فاسو فيسكوفالي Vaso Vescovali».

يعزف كوكب الزهرة على العود في أثناء ركوبه على الرمز الفلكي لبرج الثور. يمثل الهلال في الجزء العلوي الأيمن القمر، ويشير رأس التنين أسفل الثور إلى وحش التنين. الذي يبتلع القمر (الخسوف).

أعلى: تفصيل لبرج الدلو من وعاء «فاسو فيسكوفالي Vaso Vescovali» ذي الغطاء، إيران أو أفغانستان، إقليم خراسان، 1200 ميلادي. برونز عالي القصدير مُرصّع بالفضة.

تظهر الرموز الاثنا عشر لدائرة البروج حول جوانب هذا الوعاء ذي القاعدة. وهنا يجسّد الشخص الملتحي، الذي يسحب المياه من البئر، كلاً من برج الدلو حامل المياه وكوكبه المهيمن زحل.

تفصيلان من «الغراب يخاطب حيوانات متجمّعة»، من كتاب متفرّق لحكايا رمزية على لسان الحيوانات، الهند المغولية، منسوب إلى مسكين(51) Miskin، 1590 ميلادي. ألوان مائية معتمة وذهب على ورق.

أعلى: يمتلك السيمورغ؛ الطير الشبيه بالعنقاء، قوىً سحرية، ويمكن لريشه أن يشفي الجروحَ الأشدّ. وهنا يحوم مع الطيور والحشرات فوق التنين، الذي يتقاتل معه عادة (في سياقات أخرى).

اليمين: ينزلق التنين على سفح جبلي شديد الانحدار للاستماع إلى الغراب، الذي يقف قرب القمّة. لقد صُنِّف هذا التنين ذو الطراز الصيني مع الثعابين والزواحف الأخرى، في حين أن ماكارا makara، وهو تنين هندي محلّي، كان مُصنَّفاً مع البرمائيات.

اليمين : تفاصيل من لوحة مرسومة للدرويش، الهند المغولية، 1570–1580 ميلادي. ألوان مائية معتمة وذهب على ورق.

لقد كان الغرض من الطرف المنتهي برأس التنين في عكاز الدرويش أن يدرأ عنه الشر. إن لسانه الشرس المُهتز وعينه الساطعة يؤكدان قوى هذا الوحش الواقية. يظهر التنين، إلى جانب رمزيته التنجيمية، كرمز للوقاية على بوابات المدن والعروش. وعلى الرغم من أن ماكارا makara، وهو شكل التنين المحلّي الهندي المرتكز على شكل التمساح، الذي ظل طويلاً سمة من سمات المشاهد الخارقة للطبيعة، إلا أن الفنانين المغول اعتمدوا الطراز الصيني للتنين، وذلك أمر نفترضه من خلال اللوحات الفارسية. وكان ذلك الطراز ذا أنف أقصر وله لحية أو لهب تحت الذقن وقرون وجسم متموج وأجنحة ملتهبة.

اليسار: تفصيل لبرج القوس من وعاء «فاسو فيسكوفالي Vaso Vescovali».

تصوير لبرج القوس على شكل قنطورس centaur يضرب ذيله ذا الرأس التنيني. تمثّل مقدّمة القنطورس البشرية كوكبَ المشتري، وهو الكوكب المهيمن لبرج القوس، في حين يرمز التنين الى واحد من اثنين من الكواكب الوهمية، التي يُعتقد أنها مسؤولة عن الخسوف القمري.